المحاضرة الثالثة: منطلقات البحث في الطوبونيميا

1)مقاربة الاسم والمكان عبر الزمن:

إن العلاقة بين الاسم والمكان أي الدال والمدلول تنقل أحداث جرت في الماضي وتكشف عن علاقة الإنسان بذلك المكان، فأسماء الأماكن تمثل جزء من ذاكرة الشعوب ؛ إذ أن التسمية ترتبط بذكرى في الماضي وتساعد على إحياء تاريخ مضى فهي رسالة تنقل فكرة سادت في ذلك الزمان وبالتالي الاسم هو رمز يحمل في طياته حقائق عن ذلك المكان.

إن مايحيلنا على فهم الطوبونيميا المستمدة من الفترة الوسيطية لتاريخ المغرب الذي لايزال البحث فيه بكرا وأن عملية النبش في ثنايا مفاهيمه التي أثثت المتون التاريخية والأدبية قادرة على فك عدة ألغاز،لاسيما ما تعلق منها بالموروث الثقافي المشترك لكل مكونات المجتمع، وأخذ هذا المعطى في الاعتبار يمكن من تخفيف وقع اللغة البربرية التي أكد دارسوا الطوبونميات على كونها صعبة مع وجود العديد من المطبات حتى بالنسبة للبربر أنفسهم، مما يحتم الحذر في تناول المفاهيم التي تخفي بعضا من أسرارها التي لن يكشف عليها إلا باستعمال التراث الثقافي لمكونات المجتمع الأثنية . هناك علاقة وطيدة بين الطوبونيميا وهجرة السكان وتعمير الإقليم والمجال وتكمن هذه العلاقة الوطيدة في كون أن الطوبونيميا تمثل شاهد دقيق على ماضينا، فهي تبين حركية وديناميكية السكان القدامى ومجال توطين التعمير وأثار المجموعات البشرية، كما تساعدنا الطوبونيميا على التعرف على الغطاء النباتي في الوسط الطوبونيمي عبر المقاربة التاريخية، فهي عبارة عن أداة ووسيلة لتقفية وتتبع التطور الذي حصل في المجال.

2) علاقة الطوبونيميا بالعلوم الأخرى:

-علاقة الطوبونيميا بالتاريخ :

إن دواعي البحث في العلاقة بين الطوبونيميا والتاريخ ومنه البحث التاريخي هي على الإجمال محاولة تريد أن تعرض لأهمية أداة تبحث في قيمة أسماء الأماكن وعلاقتها بالبحث التاريخي عبر الإجابة عن أسئلة لها قيمتها في البحث، أسئلة تساعد على إبداء ملاحظات عن تاريخ المجال اعتمادا على اسمه أولا، وبذلك فالطوبونيميا تساعد على إعادة بناء ذاكرة المكان عن طريق التعرف على أسماء الأماكن.

يعتبر علم التاريخ من أهم العلوم التي يعتمد عليها علم الطوبونيميا، فكما هو واضح وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أسماء مدن الجزائر (نوميديا أو بلاد المغرب الأوسط) مرتبطة ارتباطا بالحقبات التاريخية التي مرت بها منذ نشأتها وعبر مراحل تاريخها والشعوب التي وضعت بصمتها وجسدت حضارتها وثقافتها من خلال أسماء منحوها للمناطق التي عمروا بها. فتتوفر الجزائر على عدد كبير من الأسماء المنحدرة من مختلف الحضارات التي تمركزت بالتناوب عبر القرون، فإذا كانت المدونة الطوبونيمية الكبرى للبلاد تقوم على أساس بربري أو عربي فهناك حضارات أخرى كالليبية والفينيقية والرومانية والبيزنطية قد تركت أثارا مواقعية بدرجات متفاوتة، عند البحث في الأسماء في الغرب الإسلامي يتضح أن البعد التاريخي بما هو مجموع أثار حركة الإنسان في المكان خلال الزمن الوسيط ، قد تراكم في مجموع الأحداث التاريخية والوقائع الاجتماعية والمظاهر الإنسانية والطقوس الدينية والنتائج الحضارية التي وقعت بالمكان

بل في مجموع القبائل والتجمعات البشرية التي استقرت بمكان ما، فأخذ المكان تسميته من أسمها أو بعضا من اسمها أو اسم أحد أفرادها، حتى أنها لم تعد مع الزمان تحيل على الحدث أو القبيلة أو العشيرة أو الفرد، بل صارت تحيل على المكان بشكل تلقائي ومباشر وهو ما يمثل بعدا حاضرا في البنية المرجعية والذاكرة الجماعية لساكنة الغرب الإسلامي، فبعض أسماء الأماكن مرتبط بأسماء القبائل أو الأسر مثل "دور بني هاشم" بقرطبة، "منازل الهاشمي" بلبلة "، "حومة العرب" بطلبيرة نسبة لبني عوف بن كعب بن سعيد بن زيد مناة الذين أقاموا بها إلى حدود القرن 5ه/11م، زقاق مصمودة عند عدوة الأندلس، قلعة الأشراف ببلنسية التي ينتمي إليها أبو العباس أحمد بن طاهر الأنصاري الخزرجي، "مقبرة بني العباس" بشرق قرطبة، مقبرة قريش بقرطبة، ومنها ما يرجع إلى أسماء الأشخاص مثل "سوق إبراهيم بقرطبة وهو يعود لأحمد بن عيسى إبراهيم.

-علاقة الطوبونيميا باللسانيات:

اللسانيات هي العلم الذي يقرأ اللغة الإنسانية على وفق منظور علمي عميق ودقيق ويستند إلى معاينة الأحداث وتسجيل وقائعها قائما على الوصف وبناء النماذج وتحليلها بالإفادة إلى معطيات العلوم والمعارف الإنسانية الأخرى،وتعتبر اللسانيات العلم الأساسي الذي يقوم عليه علم الطوبونيميا، فاللسانيات تسمح للدارس بالرجوع إلى الكتابات القديمة ومعرفة اشتقاق الكلمات ومصادرها اللغوية خصوصا عندما يتعلق الأمر بأصول جذرية كما هو الحال في الكلمات والألفاظ البربرية .

فأسماء الأماكن هي عبارة عن إشارة سيميائية لمكان ما من قبل اللغة، إذ تكمن عملية تسمية الأماكن في إرساء إشارة لسانية نرسخها في المكان المقصود بالتسمية، فهذه بالإشارة اللسانية تعبر عن فردية الأماكن فتسمح بذلك بدراسة أسماء الأماكن بنفس الطريقة التي تدرس بها المفردات اللغوية.

-علاقة الطوبونيميا بالجغرافيا:

المصدر اللغوي الذي اشتقت منه كلمة جغرافيا يرجع إلى لفظتين في اللغة اليونانية القديمة، ولعل تعريف الجغرافيا بأنها علم وصف الأرض هو أقدم تعريف لها، بل أنه التعريف المستمد من المعنى الحرفي لكلمة " جغرافية Geography " المشتقة من الجذور الإغريقية Geo بمعنى الأرض و Graphy وتعنى وصف ، والمعنى الإجمالي هو وصف الأرض. وقد عرفها العرب بهذا الاسم بعد اتصالهم بالفكر والمعرفة اليونانية اللاتينية فكانوا يستخدمون مصطلح جغرافيا أو علم تقويم البلدان في بعض الأحيان وذلك بعد أن ترجمت الكتب الجغرافية اليونانية في القرون الأولى من ظهور الإسلام.

أما اصطلاحا فهي دراسة شخصية المكان بملامحه الطبيعية والبشرية دراسة توزيع وتحليل وتعليل، أو هي دراسة العالم كوسط يعيش فيه الإنسان والحصول على المعرفة الخاصة بالوسط الطبيعي وبالنشاط الاجتماعي والاقتصادي الذي يرتبط به.

وقد كان للمسلمين مؤلفات متنوعة في الفكر الجغرافي وتم تصنيفها إلى عدة تخصصات أهمها كتــب الجغرافيا الفلكية التي نبغ فيها كلا من "البيروني" وكتابــه "القانــون المسعودي" في الفلك

والرياضيات ، و"ابن سينا" الذي كتب مجموعـــة رسائل في الجغرافية الفلكيــة، وابن رشـــد كتب كتاباً عن حركة السموات، وكتب في الجغرافيا الوصفية العامة والتي سجلت المعرفة الجغرافية للأقطار والأمصار ومنها كتاب المسالك والممالك لأبي عبد الله الجيهاني، وكتاب المسالك والممالك للبلخي، وكتاب عجائب البلدان للينبغي، والمسالك والممالك للإصطخري، وكتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك لابن حوقل، وكتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي، وأخيرا كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي، والتي عكست كلها مدى الاهتمام بتسجيل المعرفة الجغرافية، وقد اشتهر المسلمون بكتب الرحلات الجغرافية حيث دخل الرحالة العرب مغامرة اكتشاف العالم القديم وعلى رأسهم "ابن خردادبة "(ت.300ه/912م) وكتابه "المسالك والممالك" و" البغدادي" وكتابه "الإفادة والاعتبار" و" ابن جبير" وكتابه " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" و"ابن سعيد المغربي" وكتابه "المغرب في حلي المغرب" و"ابن بطوطة" وكتابه "الرحلة"، وقد تم تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم وكل إقليم إلى عشرة أقسام.

يقال أن الإنسان ابن بيئته، وتحاول الجغرافيا شرح ما يربط الإنسان بوسطه وهو ما يسمى "حب المكان" أي أن هذا الشعور يحسه الشخص تجاه مكان عيشه، الأمر الذي يجعل من كل مكان نقطة مميزة وفريدة، وتشكل أسماء الأماكن إشارة سيمولوجية تعبر عن فكرة فضاء ما من قبل شخص أو عدد من الأشخاص لا نراه ولا نحسه إلا بمساعدة عتاد ذهني، فكل شعب يسمي وينظم مكان عيشه حسب ثقافته، فيكون بذلك معرفة الوسط وتسميته عنصرا قويا في التعرف على الفعل الثقافي في تلك المنطقة، فنجد أسماء المناطق والأماكن تحمل دلالتها من طبيعة المكان وتضاريسه.